

محاضرة رقم 5 في المناهج النقدية ماستر 1 س2 المنهج السيميائي في تحليل النص الأدبي النثري

بين بروب وقريماس

عرف القرن الماضي تطوراً كبيراً في مجال النقد الأدبي ،وقد ظهرت اتجاهات ومدارس نقدية مختلفة نظرت إلى العمل الأدبي من الدّاخل في خصوصيته ، وهذه الاتجاهات جاءت كردّ فعل لممارسات تاريخ الأدب التقليديّة والتي كانت تنحصر في وصف كلّ ما هو متعلّق بولادة العمل الأدبيّ وظروف نشأته ،متجاهلة في نهاية الأمر العمل نفسه.

وكانت دراسات الشّكلانيّين الرّوس في بداية القرن محاولةً جيّدة وجيّدّة في بعض المجالات ،واتّسمت بالعلميّة وإن لم تكن قد أسّست علماً بما في العلم من قوانين ثابتة، وتبعته انجازات البنيويّين في فرنسا ،والتي نظرت إلى النّص الأدبيّ باعتباره دائرة مغلقة، ومنذ السّتينات بدأت السّيميائية تتبلور كمنهج ينظر في القوانين التي تحكم المعنى .وهذه المدارس في مجملها استفادت من العلوم اللسانيّة وجعلتها منطلقاً لتأسيس نظريّتها في التحليل.

وظائف "بروب":

يمثّل البحث الذي قام به "فلاديمير بروب " خطوة حاسمة في وضع منهجية جديدة لتحليل النّصوص.وتعتمد دراسته أساسا النّظرة الهيكلية الوصفية ،فالحكاية هيكل بنيتها مركّبة ،يمكن تفكيكها واستنباط العلاقات التي تربط بين مختلف وظائفها في مسار قصصي معيّن.

وقد تمكّن "بروب" بعد دراسته لما يناهز المائة حكاية عجيبة من استنتاج ما سمّاه بالمثل الوظيفي، وهو البنية الشّكلية الواحدة التي تولّد هذا العدد غير المحدود من الحكايات ذات التّراكيب و الأشكال المختلفة¹.

والوظيفة عنده هي عمل الفاعل معرّفًا من حيث معناه في سير الحكاية، والغاية من بناء المثل الوظيفي هي تجنّب ما سمّته النّظرية الكلاسيكية بالمبررات النّفسانية .وعدد الوحدات الوظيفية عند "بروب" لا يتجاوز الواحد والثلاثين وظيفية. تبتدىء بعرضٍ أوليٍّ الغاية منه إرساء دعائم القصة زمنيًا وفضائيًا، وتقديم الشّخصيات وإظهار غاياتهم، وهذا العنصر البنائي يمهد لظهور الوظائف².

ويمكن تلخيص النّموذج الوظيفي عند بروب بما يلي:

- 1- حصول الاقتدار (الوضعية الأولية-الوضع الأصل) [رحيل'1 - منع'2 - خرق'3 - استخبار'4 - اطلاع'5 - خدعة'6 - تواطؤ'7 - إساءة'8 - افتقار'9]
- 2-الاختبار الترشحي [طلب النجدة '10 - قبول'11 - اختبار المانح للبطل'12 - ردّ فعل البطل'13 - تسلّم الأداة'14]
- 3-الاختبار الرئيسي [الانتقال'15 -الصراع'16 - العلامة'17 - هزيمة المعتدي'18 - انتصار البطل'19 - إصلاح الافتقار'20 - عودة'21 - مطاردة البطل'22 - توفّر النجدة'23]
- 4-الاختبار الممّجّ [مطالب البطل المزيّف'24 - اختبار البطل الحقيقي'25 - الإنجاز'26 - التّعرف على هوية البطل الحقيقي'27 - انكشاف البطل المزيّف'28 - تجلّي البطل'29 - معاقبة المعتدي'30 - مكافأة البطل'31]³
- ورغم هذه المحاولة الرائدة لبروب فهي لا تبتعد عن المحاولات الأخرى للشكلانيين الذين نظروا إلى العمل الأدبي بوصفه بنية مغلقة، ومن ثمّ إلى تضيق إطار التحليل الشامل له.
- وقد ظهرت أبحاث كثيرة منذ مطلع القرن العشرين تدعو إلى تأسيس علم للعلامات، ذلك العلم الذي بشرّ به "سوسور" في قوله: «نستطيع أن نتصور علما يدرس حياة العلامات في داخل الحياة الاجتماعية بحيث يشكّل جزءا من علم النفس العام ندعوه بالسيميولوجية، وسوف يعرفنا هذا العلم بما تتكوّن منه العلامات والقوانين التي تحكمها»⁴.
- وبتطوّر المدارس اللسانية في النصف الأول من هذا القرن صاحبها تطوّر في علم العلامات، وقد تركت هذه المدارس اللسانية بصمات واضحة في المنحى الذي أخذته الدّراسات النّقدية ابتداءً من الستينات، وهي الفترة التي شهدت ميلاد السيميائية⁵.
- منهج "قريماس":**

تقوم النظرية السيميائية في شموليتها على التمييز بين صعيدي التعبير والمضمون الذي أقرّه "هيالمسلف" ،والذي يجعلنا نفترض أنّ معرفتنا للمعنى تتأطر بالشكل لا بالمادة ، ويعتبر شكل المضمون الجهة

الأساسية والمركزية التي يحيل عليها البحث السيميائي وتخلّى بذلك من النظرة إلى النصّ باعتباره انعكاساً لمشاعر الكاتب وإسقاطاً لهموم المجتمع وتناقضاته، وتصبح الممارسة النقدية نشاطاً معرفياً مخلصاً من التحاليل الايديولوجية.

ونتيجة لهذا التطور برز في مجال سيميائية تحليل الخطاب السردية "قريماس"⁶، والسيميائية القريماسية حققت نتائج مهمة في البحث، وقد عاد هذا الباحث إلى النموذج الوظيفي لـ "بروب" وبنى عليه رسماً سردياً قادراً على احتواء اللحظات القوية في الحكاية.

وقد رأى "قريماس" بأنّ منهج "بروب" تنقصه الدقة كما وجد فيه فراغات واضحة⁷، ويضرب مثلاً على انعدام الدقة فيه في المزج بين الوظيفة والحالة، "بروب" يعتبر [الرحيل] وظيفة و"قريماس" يوافق في ذلك، لأنّ الرحيل يغطّي حقلاً أو مجالاً تقوم به الشخصية، ولكنّ [الافتقار] بعيد من أن يكون وظيفة، ولا يتعدّى أن يكون حالة ولا يمكن اعتباره وظيفة على الإطلاق.

بعد هذه الانتقادات يضع "قريماس" رسماً سردياً ينبني على مهمّات ثلاث توطّر المسار السردية للبطل:

. المهمة التأهيلية.

. المهمة الحاسمة.

. المهمة التمجيدية⁸.

و"قريماس" ينطلق في بحوثه من التفرقة بين البنية العميقة والبنية السطحية، والأهمّ عنده هو البنية العميقة، أمّا البنية السطحية فليست سوى تجليات لإسقاط مكوّني البنية العميقة⁹.

والسؤال الذي تبحث فيه السيميائية في مقاربتها للنصوص هو: كيف قال هذا النصّ ما قاله؟¹⁰

وداخل النصوص هو المجال الوحيد الذي تتمكن السيميائية من البحث فيه لتأسيس هذه الكيفية كإجابة
المعنى"، فالتحليل السيميائي إذاً هو تحليل يبحث في داخل النصوص ليصف شكل المعنى ، أو هندسته،
وليس المعنى في حد ذاته. والمعنى لا يتولد إلا بالاختلاف ، والتحليل السيميائي هو وصف للاختلاف
وتثبيت له، فأين نجد هذا الاختلاف، وما هي العناصر التي نجده بينها ؟

إن تحليل الخطاب يجعلنا نتبع الاختلافات التي تظهر في النصوص من خلال تتابع النص، والسردية
هي ظاهرة تتابع الحالات والتحويلات المسجلة في الخطاب، والتي هي بدورها مسؤولة عن إنتاج المعنى¹¹.

البنية السطحية :

إن التحليل السيميائي يقوم على قاعدة الاختلافات بين الوضعيات وفق تحولات يستلزمها منطق السرد
والفاعل في وضعيته البدئية (الأولية) يكون في حالة اتصال بموضوع القيمة ،و يُعبّر عن هذه الصيغة
(ف ∩ م) أو يكون في حالة انفصال ويُعبّر عنها بالصيغة (ف ∪ م) ، والحالة البدئية هذه تطرأ عليها
تحويلات وفق أفعال تحويلية تجعل الفاعل في وضعية تختلف عن وضعيته الأولى، ويصبح الاختلاف
قائماً بين الحالة الافتتاحية والوضع النهائي.

ففي النص السابق (مثل الأسود وملك الضفادع) لابن المقفع ، يبدو أن الفاعل وهو الأسود كان في
الحالة البدئية في وضعية انفصال عن موضوع القيمة المتمثل في الطعام ونرمز لذلك بما يلي : (ف ∩ م)
حيث . ف = الأسود . م = الطعام.

ولكن التحويلات التي طرأت على النص جعلت الأسود يتحول من وضعية انفصال إلى وضعية اتصال
بموضوع القيمة في نهاية النص ، ونرمز لذلك بما يلي : (ف ∩ م)

هذه الحالات والتحويلات تشكل البرامج السردية للخطاب ، والبرنامج السردية يتمحور حول ملفوظات الفعل
، باعتبارها تحويلات تحكم ملفوظات الحالة وتشكل في الوقت نفسه البرامج السردية. ومن الواضح أنّ هذه
التحويلات المتموضعة بين الحالات يمارسها فاعل الفعل على إثر تدخل يحدث تغييراً يدل على الانتقال
من علاقة إلى أخرى يفترض اللجوء إلى تحويل ، أي إلى فعل يبني عليه برنامج سردي ينتهي إلى
حالتين متميزتين :إتصالية أو انفصالية ، تقودان الفاعل إلى امتلاك موضوع القيمة أو إلى فقدانه¹².
والمرحلة الأساسية في هذا البرنامج تتمثل في الأداء Performance باعتبارها نواة تدور حولها المراحل

الأخرى، وتقابلها صيغة [فعل الماهية] Faire-Être. إلا أنّ الفاعل المنجز لا يبدّ له من محفّزٍ (مرسل) يحثّه على القيام بالفعل ويقنعه بذلك، والصّيغة المناسبة لهذه المرحلة هي فعل الفعل Faire-faire. بعد هذا التأثير الذي يمارسه المرسل على الفاعل، يشترط أن يكون الفاعل قد توفّرت لديه مواضيع الصّيغة les modalités والتي بواسطتها ينجز فعله، وتوصله إلى نتيجة وهي مرحلة الكفاءة، وتقسم مواضيع الجهة (الصيغة) إلى قسمين :

- جهات مضمرة : إرادة الفعل / واجب الفعل — تأسيس الفاعل.

- جهات محينة : معرفة الفعل / قدرة الفعل — تأهيل الفاعل.

وإذا عدنا إلى النص السابق، فالأسود تأسس كفاعل لما تملك الإرادة وأحس بوجود الفعل، ويتضح ذلك في قوله : (فدبّ يلتمس المعيشة لنفسه..). ففعل دبّ يوحي بإرادة الفعل والإحساس بواجب الفعل. وبعد امتلاكه للجهات المضمرة تأهل كفاعل بامتلاكه للجهات المحينة والتي تتمثل في معرفة الفعل والدليل على ذلك حسن محاورته للضفدع ولملك الضفدع حتى جعل حيلته تنطلي عليه، فهذا يندرج في معرفة الفعل، يضاف إليها القدرة على الفعل والتي تتضح من خلال ما أنجزه.

وبعد الأداء تأتي المرحلة الرابعة في البرنامج السردى والمتمثلة في التّقييم، والصّيغة المناسبة لها هي كون الكون Être-de l'Être، إذ فيها يُقوّم عمل الفاعل وفقاً للعقد الذي أبرمه مع المرسل، وتُسمّى مرحلة الاعتراف، ومن خلالها تتحدّد مصداقيّة النصّ¹³.

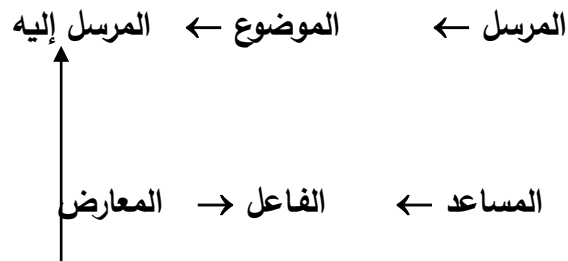
وفي النص السابق تتحدّد هذه المرحلة في قوله (فأمر له كل يوم بضعدين... فعاش بذلك ولم يضره خضوعه للعدو بل انتفع بذلك).

والبرنامج السردى وإن كان على جانب من البساطة يتأسس على مشروعين سرديين متلازمين. ومن ثمّ يجوز للزاوي أن يركّز على أحدهما جاعلاً الآخر ضمنياً لكن في اتجاه معكوس. فإذا امتلك فاعل موضوعاً أفضى ذلك إلى سلبه من فاعل آخر في عالم محكوم بقواعد تعاملية قارّة¹⁴. وهكذا فالبرنامج السردى يتميّز بالازدواجية، فإذا كانت الوضعية البدئية للفاعل هي حالة اتّصال بموضوع القيمة (ف1) (م) فإنّه يقابله دائماً فاعل مضادّ في حالة انفصال عن هذا الموضوع (ف2 ∪ م).

وفي الوضع النهائي غالباً ما يتحوّل موضوع القيمة من ف1 إلى ف2 أو العكس، نتيجة الصّراع الذي يتخلّل العمل القصصي، و انتاجيّة النّص السردّي تتمّ وفق رؤية معيّنة حيث تبرز برنامجاً أكثر من الآخر¹⁵.

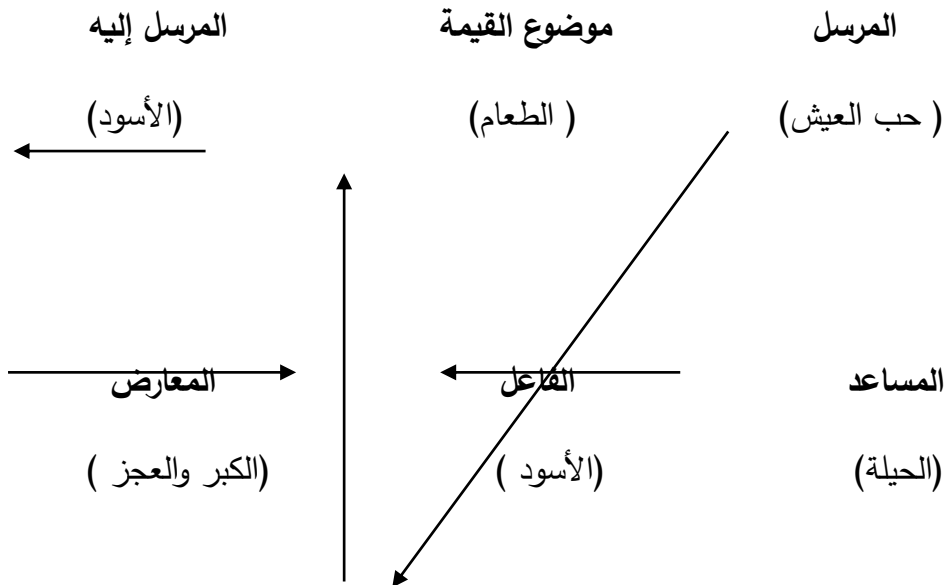
وقد حاول "قريماس" شكلنة المثال الوظيفي ليصبح قابلاً للتطبيق على كلّ الأنماط القصصية، وتتجلى هذه الشكلنة في الرّسم العملي (البنية العامليّة)، وهذه البنية تعكس بوضوح التّمييز بين العامل والفاعل¹⁶.

والسّمبائيّة تتعامل مع الشّخصيّة بمفهوم الدّور، فالعامل Actant لا يقتصر استعماله للدلالة على الانسان، فكلّ ما يقوم بوظيفة في القصة سواء أكان حياً أم جامداً أم فكرة ايديولوجية يُعدّ عاملاً، ويأخذ النّمودج العمليّ الشكل الآتي:



ويتحدّد الدّور العمليّ من خلال علاقة العامل ببقية عناصر النّمودج العمليّ.

والنّمودج العمليّ للنص السابق يمكن تحديده كما يلي :



وإضافة إلى الدور العاملي للفاعل أو أي عامل آخر فإنه يتقمص دوراً آخر يتمثل فيما يقوم به في مساره الصوري، ونسميه الدور الغرضي¹⁷ Rôle thématique. وذلك لأنّ البنية السطحية تتقاسمها تركيبتان : تركيبية سردية تشمل البرامج السردية والأدوار العاملة، وتركيبية خطابية تسعى إلى تقديم الجانب الشكلي للموضوع، حيث تثير قضية الألفاظ وسياقاتها الدلالية، وما تنجزه من مسارات صورية من خلال الأدوار الغرضية للعوامل. إلا أنّ التركيبة السردية هي التي تتحكم في البنية الخطابية فتسير صورها وتضمن تجانسها ، وتمازج التركيبتين (السردية و الخطابية) يشكّل البنية السطحية للخطاب. والتحليل السيميائي في جانبه هذا المتعلق بالصور يبدأ بملاحظة العناصر البسيطة (الوحدات المعجمية) Lécemes والتي يسمح قاموس اللغة بتحديددها، واستخدامها في سياق ما هو اكتشاف لإمكانية من إمكانيات استخدامها، وهذه الصور تتجاوز وتشكّل شبكة من الصور مترابطة فيما بينها وهو ما يُسمى بالمسار الصوري. وهذه المسارات الصورية هي التي تغطّي البرامج السردية، والمسارات الصورية قد تشترك فيما بينها في نقاط معينة تندرج في إطار تشكّل خطابي معين.

والدور الغرضي الذي تقمصه الأسود في النص السابق هو (العاجز - المحتال).

البنية العميقة :

في تحليل البنية السطحية اكتشفنا التحوّلات في البرامج السردية والتي يؤسّس من خلالها المعنى، وفي البنية العميقة ننقل من التنظيم الذي يتحكم في هذه التحوّلات والاختلافات إلى المنطق العميق الذي يحكم الدورة الدلالية¹⁸.

وينبغي في البدء تفكيك العناصر الدالة إلى الخطوط الأساسية الدنيا، فالبنية تتحدّد بإدراكنا للاختلافات التي تقوم على الأقل بين عنصرين من عناصرها يكونان حاضرين في آن وترتبطهما علاقة بشكل أو بآخر ، لأنّ العنصر في تفرده لا يؤدي معنى ، ولا يملك قيمة دلالية. لذا ينبغي أن نربط العنصر بعلاقة مع عنصر آخر لامتلاكهما خاصية مشتركة ، ومن خلال هذه العلاقة تتجلى الاختلافات بين العناصر ، وهذا الفرق بينها هو الذي يولّد المعنى¹⁹.

إنّ الصّور التي عاينّاها في تحليل التّركيبة الخطابيّة قابلة للتّحليل المعجمي، والعنصر يمكن تفكيكه إلى الخطوط الدّنيا.

وانطلاقاً من الموازاة التي أقامها الألسنيون بين الدّال والمدلول، واعتبارهم أنّ أيّ تغيير يلحق بالدّال يجد صده في المدلول، حاول علماء الدّلالة بناء نظريّة مماثلة تعتمد الموازاة بين الفونولوجية والدّلالة المعنوية.

وهكذا جعلوا المعطى الدّلالي في مستويين²⁰ :

-المستوى الأوّل: يتعلّق بالبنية العميقة.

-المستوى الثّاني: يتعلّق بالبنية السّطحيّة، والتي بدورها تنفرّع إلى تركيبيتين:

-تركيبية سرديّة. -تركيبية خطابيّة

وعلى صعيد البنية العميقة يقيم البنيويّون النّحو الأساسي الذي ينتظم العالم المعنويّ الأوّل على أساسه. والسّيمات Sémes باعتبارها الوحدات الدّنيا للمعنى تُقسّم إلى صنفين :

- سيمات نوويّة Sémes nucléaire -سيمات سياقيّة Classèmes

هذه السّيمات يمكن تجميعها وتصنيفها وفق نظائر، هذه النّظائر هي التي تضمن تجانس الخطاب، والنّظائر نوعان:

-نظائر دلاليّة Isotopies sémantiques تتحكّم فيها السّيمات السّياقية.

-نظائر سيميائيّة Isotopies sémiologique تتحكّم فيها السّيمات النّوويّة²¹.

على أنّه لتحقيق النّوايا وترجمتها إلى عمل وفعل، يحتاج إلى أرض تكون ميداناً تتموقع فيه الأطراف المتواجّهة و المتجاذبة، ذلك الميدان هو المرّيع السّيميائي، وعلاقاته هي: التّضاد - التّناقض - التّضمّن²².

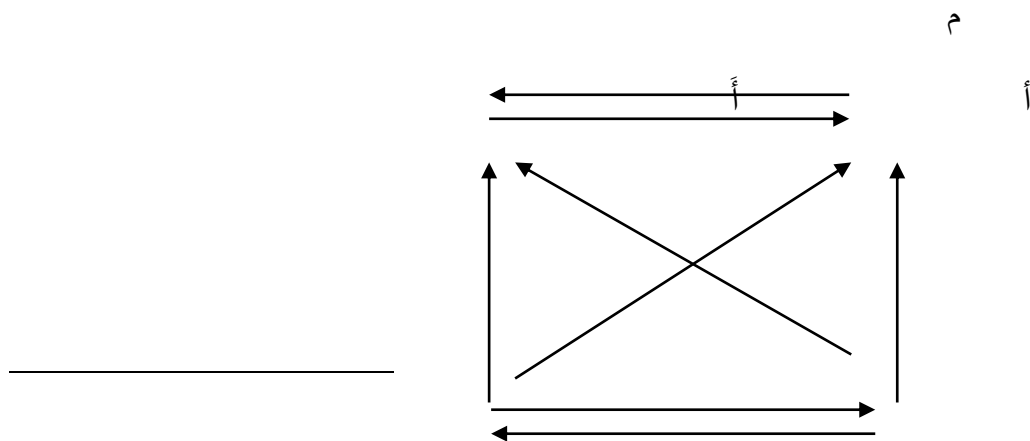
لكن الخطاب السردى، والخطاب اللغوي عامة، يخضع كما هو معروف لمبدأ "الخطية". فهو ليس فضاءً منبسّطاً يتجلّى كما تتجلّى لوحة مرسومة مرّة واحدة من جميع زواياها، إنّما تتوالى الملفوظات فيه تواليًا سياقيًا، ممّا يستوجب تحريك المربّع وبعث الحياة فيه²³.

وهكذا يثبت أنّ السيميائية تهتمّ بالظروف المولدة للمعنى بحركيته وبصيرورته في النصّ، فالمعنى ليس ثابتاً بل هو قابل للتغيّر إذ هو رهين ديمومة النصّ القصصي. وفي هذا يقول "قريماس": «إنّ توليد المعنى ليس له معنى إلاّ إذا كان تغييراً للمعنى الأصلي». وعلى هذا ففكر في تكوين رسم هندسي يرمي إلى عقلنة المعنى، وذلك بربط الصريح بالصمني مع تنظير وشكلنة وسائل خلق المعنى وتصوّراته²⁴.

وفي هذا النطاق تصوّر ما أسماه بالمربّع السيميائيّ كمثال أصوليّ لشكلنة المعنى. وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ الدلالة تستخلص من علاقات الاختلاف والتّقابل القائمة بين حزمة من الوحدات الدّالة، فالأبيض لا يستقيم معناه إلاّ بمقابلته بالأسود، غير أنّ هذا التّقابل يقتضي وجود عنصر مشترك بينهما يسمّى "المحور الدّالي"²⁵.

وانطلاقاً من البنية الدّلالية الأساسيّة القائمة على التّقابل، بوسعنا أن نؤسّس نموذجاً منطقيًا ينظّم شبكة من العلاقات

بين وحدات دلالية متولّدة عن البنية المذكورة، هذا الذي سميناه المربّع السيميائي²⁶.

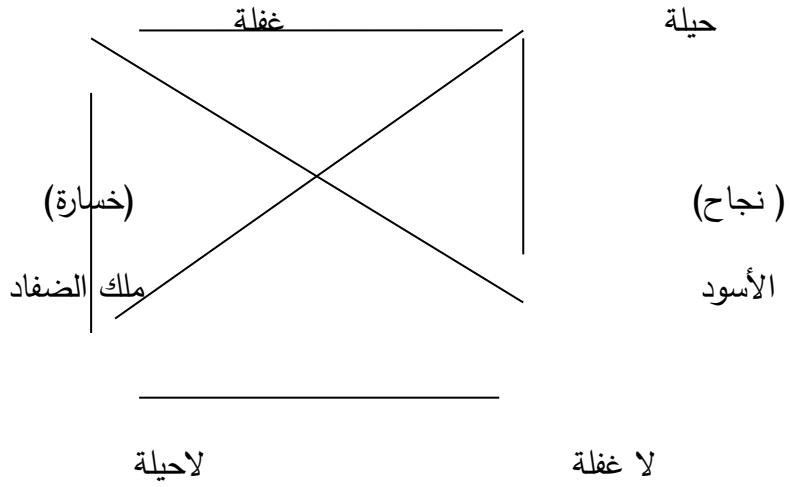


لا أ لا أ

م

والمربع السيمائي للنص السابق هو :

(تعامل)



وسنحاول إبراز نوعية العلاقات القائمة بين أركان النموذج :

. العلاقات التدرجية : تقوم العلاقة الأولى بين أ، أ و م، والعلاقة الثانية بين لا أ، لا أ و م.²⁷

أ ← م لا أ ← م

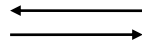
أ ← م لا أ ← م

. العلاقات المقولاتية : وهي العلاقات التي تتولد بين هذه الأطراف، وتقوم عملية التولد الأولى على قاعدة النفي الذي يصيب كلاً من طرفي التعارض الأولى، وهي عملية تنتج إقامة ثلاثة أنواع من العلاقات²⁸ :

أولها، علاقة التناقض بين كلٍ من طرفي التعارض ونفيها: أ ← لا أ .

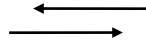
أ ← لا أ .

ثانيها علاقة تضاد يقيّمها الطرفان الأوليان : أ أ



وعلاقة شبه التضاد :

ثالثها علاقة تضمّن بين لا أ لا أ



ثالثتها علاقة تضمّن بين :

(لا أ أ) ، (لا أ ← أ) ←

التولّد الثاني يتمّ بين علاقة التّضاد وشبه التّضاد وهي في هذه الحالة تناقض.

(م ≠ م)

والتولّد الثالث بين مؤشّر الإثبات ومؤشّر النّفي ، وهو في هذه الحالة تضادّ ، ويتمّ بين :

(لا أ أ) و (لا أ ← أ) ←

وعلى هذا فالمرّبع السّيمائي صار شكلا هندسيّاً، يصحّ توليد مفاهيم منه لصياغة نظرية تعتمد على الطوبولوجيا والعلاقة والاختلاف والانتلاف²⁹.